الدكتور مختار السيد (١)

لم يكن فى الأمر أية غرابة فقد أصبحت شيوعيا بشكل تلقائى ففى قريتنا جزيرة القباب مركز دكرنس شبان يتحدثون دوما عن الماركسية وإلى جوارنا عبد الله الزغبى، و«ميت السودان» «عبدالفتاح موافى» وميت الحلوج «الشيخ عبدالسلام الخشان» وعلى الكوبرى الصغير الذى يربطنا بالضفة الأخرى للنيل كنا نلتقى فى مجموعة كبيرة فتحى مجاهد – محمد طه – السيد يوسف – حمدينو السيد وغيرنا كثيرون نناقش قضايا الصراع الطبقى كأنها خبز يومى.
«د. مختار السيد – فى حواره معى»

الأب بدأ فقيرا جدا وأنجب عشرة أبناء، وكانت معركته أن ينقذ أولاده من الفقر وأن يمنحهم تعليما جيدا، وبرأسمال قليل جدا، وإصرار شديد جدا امتلك ٢٣ فدانا، لكن جيش الأبناء كان يلتهم كل شىء، والفتى مختار مميز بين الجميع بشعره الأحمر وبشرة بيضاء بها بعض من النمش، ومميز أيضا بذكاء حاد وقدرة على الحفظ، كل صباح يركب القطار الفرنساوى إلى المنصورة حيث المدرسة الابتدائية ليعود فى المساء – والقطار الفرنساوى وسيلة مواصلات غريبة تتدحرج ببطء بين القرى إلى المنصورة وكنا ونحن صغار – نسابقه فنسبقه، وأحيانا كثيرة ينفذ رصيده من الفحم فينزل السائق والركاب يقطعون بعض الشجيرات والأعشاب والأوراق لتشتعل وتمضى بالقطار إلى وجهته، أى أن المسافة التى تقطعها السيارة فى نصف ساعة إلى المنصورة قد يقطعها القطار فى ساعتين أو ثلاث، ومع ذلك يستمتع الفتى بالمذاكرة فى القطار المزدحم ويتفوق فى الدراسة، ويلتحق بالمنصورة الثانوية، ويحاول الأب أن يوفر للابن بعضا من الوقت فيأتى به إلى شارعنا فى المنصورة «شارع القهوجى» وفى غرفة بالدور الأرضى فى بيت قمر يستقر مختار مع عدد من الطلاب، أبى وكل سكان الشارع استشعروا سخطا على هؤلاء الأولاد الأغراب

والعزاب والذين قد يجرحون حرمة الجيران، وترصدوهم وأنا معهم، كنا نشاهد الفتى ذو الشعر الأحمر يمرق كالسهم عيناه فى الأرض، وغرفته لا يفتح شباكها إلا نادرا. وعم المرشدى البقال المواجه للنافذة التى لا تفتح كلف من أبى بأن يراقب الأغراب، لكن الفتى يمضى ويذهب ولا يلتفت، وحتى لا يلقى بالتحية لعم المرشدى، ونجح الفتى فى الامتحان، فلم يرفع عيناه عن الأرض، ولم يتطلع إلى بلكونة رغم إغراء الفتيات المتألقات فيها، ولم ينظر حتى لسهير بنت أصحاب البيت والتى كانت واحدة من جميلات الشارع، ويمضى مختار ليقفز نحو التوجيهية، غريبا كما أتى فى يومه الأول، لكن قلبه كان هناك، فى المدرسة حتى التقى بكر الشرقاوى وتكونت مجموعة تواصل النقاش. هو وبكر وعبد الله الزغبى وطاهر عبدالحكيم، أنهكوا أنفسهم نقاشا وبحثا وقراءة وانتهى الأمر بالاتفاق على أن الحل هو الانضمام إلى تنظيم شيوعى.

ولكن أين هذا التنظيم لم يستطيعوا العثور عليه، وفجأة تفجرت المنصورة وشارع القهوجى بأنباء القبض على عشرات الشيوعيين من المنصورة وأحاطت الدهشة بهم، ودهش مختار إذ عرف أن ابن الحاج محمد الذى هو أنا من بين المقبوض عليهم. عبثا حاول مختار وزملاؤه العثور على خيط ليصل بهم إلى التنظيم دون جدوى فكل شىء انكمش والأحكام العرفية معلنة بسبب حرب فلسطين، لكنه وما أن يخطو إلى أيامه الأولى فى كلية الطب حتى يجد الشيوعيين هناك وينغمس معهم رغم كل المحاذير، أبوه مات ثم لحقت به أمه، ويقبض عليه فى إحدى المظاهرات ليفرج عنه سريعا، ويستدعى مختار كل الأخوة ليقيموا معه فى القاهرة ويعيشوا بإيراد شحيح لما تبقى من أفدنة ورثوها عن الأب، وذات يوم شعر أنه مراقب من الأمن نصحه زملاءه أن يختفى سافر إلى القرية ليدبر مالا فالهرب يحتاج إلى مال، جدته أعطته كل ما تملك مائة جنيه، والمائة جنيه مبلغ كبير بمعايير هذا الزمان، لكنه ما أن عاد إلى القاهرة حتى وجد رفاقا أكثر مسئولية فى التنظيم وهم هاربون فعلا، ورفاقا من الطلاب فى كلية الطب يتهددهم الفصل لأنهم لم يسددوا الرسوم الجامعية، والفتى الذى وهب حياته للفكرة وللمعتقد وجد لزاما عليه أن يهب المال لرفاقه الأكثر احتياجا وتبخر المال وهكذا مارس مختار أول طقوس التضحية دون ضجيج، واعتاد على ذلك دوما، أن يعطى دون ضجيج. واعتمد مختار على علاقاته مع أبناء قريته المقيمين بالقاهرة واختفى حتى انتهت الأحكام العرفية وعاد مختار إلى بيته وبعكس ما

كان فى مدينة المنصورة، كان يطل من البلكونة ليتابع ما يجرى فى الشارع ولمحت عيناه فتاة فى المنزل المقابل.. تعلق بها عن بعد ثم اكتشف أن أحد معارفه من الجيران يتردد على بيتهم، أبوها كان ناظرا لمدرسة الصنائع وكان يهوى الفن، واحد من تلاميذه كان مجنونا بالفن ويتردد على منزله، هذا التلميذ هو زكريا الحجاوى، أفشى له سره ووعده الحجاوى خيرا، زار بيت حضرة الناظر واصطحب «ثريا» إلى البلكونة وكان مختار فى البلكونة المقابلة، وقال لها هذا الشاب ذو الشعر الأحمر يهيم بك غراما، وباحت له بأنها كذلك تهيم به غراما، وأتى مختار إلى بيت حضرة الناظر وخطب ثريا إبراهيم، وفى فترة الخطوبة أعطاها كتابا عن الماركسية، وبعدها سألها هل قرأت الكتاب ترددت ثم قالت بصراحة قرأته عدة مرات ولم أفهم شيئا. وبدأ مختار فى شرح المفردات والجمل وهى تحاول جهد طاقتها أن تفهم، ثم أعطاها رواية «الأم» لمكسيم جوركى وأتت إليه مسرعة فى اليوم التالى مباشرة كانت متهللة ومتحمسة وتكاد أن تصرخ، قرأت الرواية الضخمة كلها، سهرت طوال الليل حتى التهمتها وصاحت عندما رأته أنا عايزة أبقى زى أم «بافل» وزى «بافل» نفسه، وبافل هو بطل الرواية، المناضل الشيوعى الذى قبض عليه وسجن.

وأصبحت ثريا سندا ورفيقة وزميلة وزوجة وأما.. واعتمد عليها مختار فى كثير من المهام، كثيرون كانوا يأتون إلى البيت يغلقون باب الصالون، هى دون أن يطلب إليها مختار تتسمر فى البلكونة لتراقب الشارع، وبدأ مختار يعتمد عليها يعطيها لفافة لتحملها إلى فلان، أو تأتى بلفافة من فلان، ذات يوم أعطاها لفافة وقال لها هذه لفافة مهمة جدا، اذهبى إلى محل أسترا فى التحرير، سيحضر رفيق خارج لتوه من السجن ومن الضرورى ألا يتصل به شخص معروف، كيف أعرفه؟ هو أسمر وله شنب، وجلست كل شاب أسمر تبتسم له ويبتسم لها، فتاة جميلة وشيك تبتسم لكل من يدخل، لكن أحدا لا يقترب منها، فجأة أتى شاب غير مبتسم أتى إليها مباشرة وفى حزم تسلم اللفافة متجهما ومضى متجهما، عرفت فيما بعد أنه فتحى خليل الصحفى فى روزاليوسف.

يومها عرف مختار أنها تستطيع أن تلعب دورا مهما كمسئولة اتصال، وبدأت تتقن فنون العمل السرى وفن الإفلات من المراقبة والتخفى وإخفاء الأوراق.. وأصبحت ذراعه اليمنى.

ونمضى مع مختار فى رحلته الجميلة.